جريدة الدستور الثلاثاء ٦ حزيران ...؟

الانسان ذاك المجهول (١)

وجود البداية الواضحة

الانسان جزء من وجود لا بداية ولا نهاية له، سوى ما يمكن اعتباره مسلّمات تقليدية تخبرنا عن عملية الخلق من غير تحديد بداية واضحة او غاية صريحة لها. كما لم تستطع هذه المسلّمات ان تحدد تواريخ منطقية الى ما سيؤول اليه هذا الوجود ...

قال ان الانسان خلق سيداً وحراً. وقفنا عند التعمّق في مفهوم هذه السيادة وهذه الحرية نجد تناقضاً كبيراً بين هذه المقولة وبين الواقع ... فكيف يكون الانسان سيداً وحراً وهو عرضة لتاثيرات شتى متنوعة، منها ما هو اساسي وجوهري كعمليتي الولادة والموت، ومنها ما هو تفاصيل حياتية معيشية تفصل هاتين العمليتين .. فهل هذه السيادة والحرية مطلقة ام هي محدودة ونسبية ؟...

نظرة سريعة على مراحل التطوّر التي مر بها الانسان، نرى انه حقق بالفعل انجازات كبيرة تؤكد سيادته وحريته.

لكن تلك الانجازات بقيت ضمن اطر محددة ومحدودة. لانه وكما هو ملاحظ عبر كل انجازاته، كان في موقع الدفاع وليس في موقع الاقدام والسيادة ... فهو في قلقه الدائم من مجهول ما، كان يحاول بناء دفاعات يحتمي فيها من المجهول .. فهو اذاً بعيد كل البعد عن السيادة على هذا المجهول، وعن حرية التعامل معه ... وباقتناعه بتفوّق المجهول على المعلوم فقد الكثير من حريته، وسبل تحقيق خياراته وطموحاته.

واذا ما اردنا تعريف هذا المجهول مدار حديثنا، نقول انه هو كل ما لم يدخل حيز الوعي البشري بعد ... والذي انقسمت وتشعبت الافكار والآراء حوله ...

فالمعتقدات الايمانية سلّمت بهذا المجهول على انه من عمل الخالق عزّ وجل، وهو بالتالي خارج نطاق قدرة الوعي البشري على فهمه.

والعلوم حاولت من جهتها ان تتصدى لهذا المجهول، فبانت ابحاثها بدائية في هذا الصدد، ثم راحت تتطور بواسطة تفعيل اعمق للمقدرات العقلية، لتحليل بعض الافكار الفلسفية التي استطاعت فقط ادخالها في مختبراتها العلمية المادية البحت، فتوصلت الى اكتشاف ما يمكن وصفه بالكثير نسبياً من مجاهل هذا المجهول ... الا ان هذه الاكتشافات، على اهميتها وعظمتها والتي حسنت الكثير من الشروط الحياتية للانسان، لم تستطع ان توصله الى فهم كنه هذا المجهول وجوهره فبقيت نتائج انجازاتها ناقصة ومحدودة، لانها كانت تصطدم في الكثير من الاحيان بصعوبات وعراقيل مختلفة توقفها عند حدود معينة لا تستطيع تخطيها، فتسلّم عندها بمحدودية الفكر البشري، او تأمل وتطمح باحسن الاحوال للوصول مستقبلاً ربما، الى ما اختبرت عن ادراكه حالياً...

من خلال ما تقدم فان التكنولوجيا العلمية، وعلى قدر ما حسنت الظروف الحياتية المعيشية للانسان، كذلك المعتقدات الايمانية، على قدر ما قدمت له من استقرار نسبي لنفسه وكيانه، نرى ان الفكر فيه لا يزال حائراً وغير قانع ... اعتقاداً منه بان في ما زال خافياً من هذا المجهول تكمن الاسرار التي اذا استطاع حل الغازها، توسّع وعيه، ومن ثم فهم علاقته كانسان بكل ما يدور حوله في هذا الوجود الذي هو جزء منه ...

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه بقوة، هو اولا عن مدى قدرة الفكر الانساني على اكتشاف هذا الجزء الكبير من المجهول الذي لا يزال خافياً عنه، وثانياً هل هو مؤهل حقاً للولوج في مجاهله من غير ان يضيع في غياهبه ؟...

انطون صباغ